# أدمون روستان

## Edmond Rostand

( محاضرة الاستاذ حسن صالح الجداوى المحامى )

(فى دار نقابة موظفى الحكومة بالاسكندرية مساء الاربعاء ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨)

سادتى :

لم أتخير عبثاً أن يكون أول حديث لي بالاسكندرية ـ مدينة العلم القديم والحديث ـ عن إدمون روستان . وانما دعانى إلى هذا لاختيار شيئان :

الشئ الأول أنه فى مثل هذا الشهر لعشر سنين خلت مات إدمون روستان أكبر شعراء فرنسا بعد فكتور هيجو : مات بعد أن تخطت شهرته القارات الخمس ، وبعد أن نال صيتاً عالمياً لم يحظ بمثله حديثاً شاعر ومؤلف درامى غيره .

والشئ الثانى أن ادمون روستان من أبناء ثغر مارسيليا أكبر موانئ البحر الابيض المتوسط ، فمن حقه علينا أن نذكر اسمه فى الاسكندرية عروس هذا البحر

***

حياة الرجل : ولد إدمون روستان فى أول ابريل سنة ١٨٦٨ بمدينة مارسيليا بشارع مونتو ، فى صبيحة يوم من أيام الصيف اللذيذة بجنوب فرنسا التى هى أشبه بأيام الربيع عندنا : وبدأ دراسته بها وأتمها بباريس حيث التحق بكلية الحقوق ونال إجازتها

نشأ إدمون من عائلة متوسطة من عائلات فرنسا ، ليست بالارستوقراطية ولا هى بالعاملة . ولكنها من العائلات التى تسهر على أبنائها . تحوطهم برعايتها . وتشملهم بيقظتها . ولعل أصدق وصف لطفولته هى تلك الاديبات التى قالها هو نفسه عن هيجو:

« أيتها الوالدات .

« ليكن عطفكن ممزوجا بالاحترام

« ولتكن القبلات التى تضعنها شفاهكن على جبين الطفل باحتراس وحذر

« وتملأ الخشية صحكن

« ولترهبن من حمكن المستقبل هكذا فوق حجوركن

« ولتذكرن كلما أخذتن تلك الرءوس الصغيرة بين أيديكن

« تحاولن أن تقرأن ما فى العيون البريئة من أسرار :

« انكن قد تكن ممسكات عالما بين أيديكن » :

ويقابلها نظماً :

أيها الوالدات بالروع مازج ن حناناً لكن نحو البنين
ولتحاذرن عند تقبيل طفل باحتراس على الوسيم الجبين
ولتحاذرن عند لهو وفى حـ ـل جلال (الآتى) لكم فى الحجور
وتذكرن كلما شاق أيدي كن عطف يضم رأس الصغير
فى احتيال لفهم ما حجبته طاهرات العيون من أسرار
إنما تحتفظن ما بين أيدي كن بسر لعالم جبار

ترعرع الطفل ونما . وماكاد يلج المدرسة الثانوية باريس حتى أخذت الفكرة الشاعرية عليه حواسه ونفسه . بدأ خياله يسمو ويسبح . فكان فى نباره كعامة الطلاب وكان فى مسائه يقبل على قراءة الشعراء إقبال النهم الذى لا يشبع وبدأ يقرض الشعر فى السر . ولم تخل مواضيعه الانشائية من جرأة أقلقت بال مدرسيه. ولكن واحدا منهم شجعه وقواه . فقد كان هو أيضا ينظم الشعر ويفتن به وقد ذكره روستان فى شعره :

C' est toi qui m'as prédit que pi serais artiste
Et c'est toi le premier rimeur que j'ai connu.

« أنت الذى توقعت لى أننى سأصير فناناً
وأنت أول ناظم عرفت »

ويقابل ذلك نظماً :

أنت الذى قد شمت لى مستقبل الفنان
وكذلك أول ناظم كرمت فى عرفانى

ثم فى كلية الحقوق هذه آتر روستان الوحيدة معه لا فى غرفته بأحد مساكن باريس المرتفعة . يكتب من حين لآخر ويفكر ويحلم فى أغلب الاحيان ، ويعتقد فى سنة ١٨٨٠ . فى ذلك العهد الذى ملىء تكلفاً وجحوداً وكفراً — فى حقيقة الجمال ، وفى المثل الأعلى . وفى الخيال . وبأسف وسط ضباب باريس وبرودة هوائها وجوها القاتم على جمال مارسيليا وسمائها الصحو ونسيمها المعتدل حيث يكون كما قال :

« لولا أنه أمل لكثيرين غيره
« أن يكون له مكانا تحت شمس بلد
« لا شمس لها »

"Si je n'avais rêvé. le vieux rêve inutile
Atant d' antres pareil
De me faire une place au soleil d'une ville
qui n'a pas de soleil"

مما يقابله نظماً .

لولا رجائى كغيرى أن أهيىء لى ء مكان شمس بأرض لاتضىء بها

ولكنه ؛ رغم ذلك ، كان يعرف كيف يلتمس فى باريس هذا الجمال الذي ينشده فكان ينتحي من غرفته مكاناً بأرضها بحيث يخفى عن عينه باريس العاملة بضبابها ودخانها ، ومصانعها ومداخنها ؛ ولا يقع نظره إلا على جزء صاف من السماء ونجومها فكان بتلك الوسيلة يرى الجمال رغم اعتياده رؤية الدميم ويفنى — مع ما يحب — وسط ما يكره !!

أتم روستان دراسته الحقوق ولكن انى لهذا الشاعر أن ينزل من سماء شعره الى أرضنا ليطالب بحق مفقود أو متنازع فيه أو يستمع الى حديث قاتل شرير أو فاسق مكروه ؟ لا ! إن المهنة التى أتشرف بالانتساب اليها وإن كان لها جانبها الشريف النبيل . إلا أنها على كل حال مهنة من المهن الأرضية لاتروق فى أعين الشعراء ولا ينزلون اليها ! لذلك لم يكد شاعرنا يعتنقها حتى طلقها وتفرغ للشعر والأدب والتمثيل فأظهر ديوانه الأول ( الصالونيات Les Musardises ) وهو بعد فى الثانية والعشرين من عمره سنة ١٨٩٠ . وفى هذا العام نفسه من الآسنة

Rosemond Gerard (روزموند جيرار) وهي شاعرة أديبة ازدادت باتصالها اليومي بادموند ومبادلتها إياه حبها وروحها ونفسها صقلا وتمكنا من الأدب ؛ حتى أنها — حين نشرت بعد عام لزواجهما ديوان شعرها — لم يدر النقاد أهذا شعر إدمون! ولكن أكثر رقة وجزالة من مألوفه ، أم أنه شعر روزموند ولكن أكثر رجولة ومتانة من معتاد نظمها .

ولقد كان ديوان إدموند (الصالونيات Les Musardises) فتحاً جديداً فى الادب الفرنسى ، فعنه يقول أحد النقاد الفرنسيين اوجستان فيلون : « ليس هذا الكتاب أحد البراعم ولازهرة ، وانما هو فاكهة ناضجة وليس هو أملا وانما هو نبوغ شعرى محقق بلفظ جديد وجرأة عجيبة . ولقد دل هذا الديوان على أن روستان يعرف كيف يبسم كما يعرف كيف يبكى وكيف يحب ؟ »

* * *

ولكن إدمون روستان ليس شاعراً فحسب. وإنما هو مؤلف درامى عرفته الصدف بأحد ممثلى ملعب فرنسا الاكبر La Comedie Française فقرأ له قطعة من شعره أعجبته وهى « اللاهون Les Pierrots » فأطلع عليها المسيو جول كلاريسى مدير الكوميدى فرانسيز الذى قرأ القطعة وزكاها لدى مجلس الادارة وقرأها على أعضائه . ولكن فى أثناء تلاوتها أبلغ الاعضاء خبر وفاة «تيودور دى باتيل» فكان للحزن الذى شملهم أثره فى تقديرهم للقطعة فرفضوها !! فكان هذا الرفض سببا فى أن يقدم روستان لهم روايته «الخياليون Les Romanesques» التى قبلت وانتظرت دورها عامين فمثلت فى ٢١ مايو سنة ١٨٩٤ وعنها يقول جول كلاريس نفسه : « لم أر دهشة عظيمة كدهشة المتفرجين دهشة ممزوجة بالاعجاب والسرور . وهم يصغون الى تلك الابيات الجزلة الرقيقة ، أشعار الحب الصادق البرئ بين خطيبين فى الثامنة عشرة تحت ظلال الزيزفون . منظر حنان وشباب تحت ضوء القمر الوردى . وكانت سيلفت وكان برسينيه أشبه ببطلين فارين من إحدى غابات شاكسبير » . ويضيف كلاريس انه وقت ذلك شعر بأن فن التمثيل كان يجرى فى عروق ذلك الشاعر الشاب فقد كان يتولى بنفسه ( أعنى الشاعر ) ارشاد الممثلين إلى الطريقة التى يريدهم على

أن يلقوا بها أشعاره وكان يقرأ رواياته و يشخصها بنفس المهارة التى يستطيعها ممثل ماهر ! »

قلنا إن « الرومانسك » انتظرت دورها عامين ولكنهما لم يكونا عامى بطالة وكسل لشاعرنا فقد كتب روستان فى خلالها « الأميرة النائية La Prinan Lointaine » . وتعرف فيها بممثل فرنسا الاكبر كوكلان الاب Copuelin aine الذى طلب اليه أن يوافيه برواية يخرجها بنفسه فتحدث اليه الشاعر حينذاك بشخصية لازمته من وقت تلدنه : سيرانو . وبينما كانت ساره برنار — سارة التى يقول عنها روستان انها وهى تمثل أبطال شاكسبير تكاد تشعر بشفتيه تلثمان أطراف أناملها — تهوم بدور الاميرة النائية ، كان روستان يكتب روايته الخالدة « سيرانو » بدأها فى الخامس من ابريل سنة ١٨٩٥ وأتمها فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٩٧ ومثلت للمرة الاولى فلاقت نجاحا لم تعهد مثله فرنسا من أيام روايات هوجو الاولى .

وأخذ الشاعر إثر ذلك يثبت كلما سنحت فرصة انه رجل التمثيل الدرامى بحق ، فأعقب سيرانو بالنسر الصغير سنة ١٩٠٠ وانتخب عضواً بالاكاديمية فى ٣٠ مايو سنة ١٩٠١ ولكنه — لاعتلال صحته — ظل عامين بعد خطاب القبول فأتمه فى يونية سنة ١٩٠٣ وازدادت صحته اعتلالا حتى ان « شانتكلير » التى أتمها تقريبا فى سنة ١٩٠٤ لم تمثل الا فى سنة ١٩١٠ . ومن بعدها صمت روستان مكتفيا بأبيات من الشعر يرسلها من حين لآخر ، ولكنه كان يعد عملا قيما الا انه بعد موته لم يظهر لنا منه الا « جولة المارسيليز الهوائية » « وليلة دون جوان الاخيرة » . وبذلك اختتم روستان حياته .

* * *

هذا ملخص من حياة روستان — بل هذه حياته كلها — وهى كما ترون حياة بسيطة هادئة — حياة رجل عشق الجمال وأحبه وتخصص للشعر والتمثيل بكلياته وجزئياته . لم تتخللها حوادث خارقة . فلا أحزان هوجو ونفيه وثوراته ولا حب موسيه وغيرته وحوادثه الغرامية ولا ثراء لامرتين وفقره وسيطرته حيناً و بؤسه أحيانا . لا لاشى ،

من كل هذا وانما هو رجل عاش من الشعر وللشعر . ولد شاعراً ومات شاعراً وستبقى ذكراه كأسلس وأرق شاعر عرفه الأدب الفرنسى .

رجل شمله القدر برعايته وكأنما قد قال له : ستصير مشهوراً معروفا فى أنحاء العالم أجمع قبل ان تبلغ الثلاثين وستتخطى عتبة الاكاديمية وانت فى الخامسة والثلاثين حينما لايدخلها سواك الا فى الستين . وستنال نصراً يتلوه نصر وحتى بعد موتك ستخلد ذكراك . »

أجل : حتى بعد موته ! فها نحن بعد موته بعشر سنين ، ومع ذلك فروايات روستان مطمح أنظار الممثلين يتسابقون إلى إخراجها أكثر من تسابقهم إلى إخراج روايات الكتاب الأحياء رغم مالهم من نفوذ وسيطرة : ويحرص النقاد على إتقان تمثيل كل دور من أدوارها حرصهم على فخر قومى يأبون أن يزول أو ينتقص .

ولقد أذكر حديثا وقع لى فى العام الماضى حين كان عميد الكتاب الفرنسيين المسرحيين — وأعنى به بيير وولف — يلقى محاضراته بفندق هليوبوليس بالاس بالقاهرة . فلقد كانت الممثلة الفرنسية النابغة «جان بروفو» فى رحلة بمصر وقامت بتمثيل « النسر الصغير » فى نفس الوقت الذي أخرجها مسرح رمسيس : ومثلت الدور ممثلتنا المصرية العصامية «فاطمة رشدى» . ولا أخفى عنكم أننى — وقد شهدت التمثيلين — لم أكن لأذهب مذهب المجلات المصرية العديدة فى ايثار الممثلة المصرية . ولم أجد حرجا فى أن أصارح برأيى هذا «بيير وولف» وأبدي له إعجابى بجان بروفو ؛ لانى من الذين يرون أن الفن كالعلم لا وطن ولا جنسية له . أتدرون ماذا قال لى بيير وولف وهو العليم بكل ما يتصل بالتمثيل والممثلين ؟ قال لى إن تلك التى أعجب بها لا تجرأ على القيام بدور النسر الصغير على مسرح « باريس » .

من ذلك يمكنكم أن تقدروا إلى أى حد تصل رغبة القوم فى أن يروا أدوار روستان متقنة التمثيل والاخراج

مؤلفاته ــ

والآن ــ وبعد أن تكلمنا عن حياة الرجل ــ أريد أن أذكر شيئا عن مؤلفاته :

عندى أن روستان هو الشاعر كما يجب أن يكون الشاعر ليس الرجل الذى يحس فيترجم إحساسه أصدق ترجمة لاغير ؛ وإنما الرجل الذى يحس ويريد غيره على أن يحس إحساسه . الرجل المؤدب الذى يبث فى قومه أصدق العواطف والعزة والشهامة . الرجل الذى يأخذ بيد أبناء وطنه فيرفعهم الى ذروة المجد ؛ ويشيد بفضل قومه فيزيدهم احساسا بعظمتهم وتقديرا لانفسهم وشعوراً بشخصيتهم ويلهمهم حب الانسانية ومثلها الأعلى . لذلك كنت دائما من هذه الناحية أميل إلى حافظ أكثر من ميلى إلى شوقى . وإذا قلت لكم إنى لذلك كنت أجد لذة وفخراً فى أن أنشر أشعار صديقى زكى أبى شادي لم آت لكم بشئ جديد .

ولقد كنا فى أيام التلمذة نحمل كتب روستان فى جيوبنا ، نتلوها فى الخلوات بصوت مرتفع ، ونحفظ الكثير من أبياتها عن ظهر قلب : وكنا نقرأ راسين وكورنيل ونعجب بهما إعجاباً رسمياً أو شبه رسمى - كما يقول السياسيون - ولكنا كنا نعجب ونحب ونعشق روستان عشقا . كنا نقرأ « سيرانو » فنرى فيه المثل الاعلى للتضحية والفخار والحب الشريف الكريم ؛ والصداقة النزيهة ومحاربة الرياء والكذب . وكانت كل هذه العواطف تلهب صدورنا وتملؤنا غيرة وإحساسا فكان كل منا يشعر بأنه « سيرانو » آخر ، ولا شك عندى أنا اذا كنا اليوم رغم عالم الماديات الذي يغمرنا بجيوشه - لا نزال نشعر بعواطف رقيقة وميول شريفة فاننا مدينون بالجزاء الاكبر من ذلك إلى روستان وأنداده .

وانى لاقول لكم عن نفسى إننى لم أعجب فى ايام تلمذتى ولا ازال على رأيى هذا حتى اليوم بقطعة من الشعر الحماسى إعجابى بهذا الرد البديع لسيرانو يصفع به وجوه من اتهموه بالادعاء والكبرياء :

« وماذا تريدوننى أن أصنع

« تريدون أن أبحث عن سند قوى عن سيد يحمينى

« كالطحلب الحقير الذى يتملق السنديانة ويتخذ منها وليا

و يتسلق بالحيلة بدلا من ان يرتفع بالقوة ؟ لا : شكرا

« أم تريدونني أن أهدي شعري — كما يفعل غيري — للموسرين أم أن أصبح نديماً — يدفعني الأمل الذي — الى أن أسعى لأرى — على شفتي وزير — ابتسامة ليست صفراء لا ! شكراً !

« أم أن أتغذى كل يوم بضفدعة وأن يتعب السير معدتي وأن تكون لي بشرة سرعان ما تتسخ عند موضع الركبتين من أثر السجود وأن أدرس فن الانحناء والتعظيم لا ! شكراً !

« أم أن ألاعب الشاة يد وأروي الزرع بالأخرى وأن أوزع بخور ثنائي كل يوم على شخص لا : شكراً

« أم أن أنشر شعري : يدفع ثمنه لا : شكراً

« أم أن أدع الغافلين يرشحوني « بابا » في حاناتهم لا : شكراً

« أم أن أسعى لأبني لنفسي مجداً حول قصيدة بدلا من أن أنظم غيرها لا : شكرا

« أم أن أخشى النقاد والصحف والناس لا : شكراً

« أم أن أحتاط لخطواتي ، وأرتعب ، وأفضل الرجاء والزيارات على نظم الشعر لا : شكراً : ثم شكراً : ثم شكراً

***

« ولكن . . . أغني : وأتخيل : وأضحك وأسير وأكون وحدي حرا طليقاً : وأن تكون لي العين التي تحدق ، والصوت الذي يرعد : وأن أضع تبعتي وقتما أشاء كيفما أحب وأن أتبارز للفظة « لا » أو « نعم » ، وأن أقرض الشعر وأعمل غير ناظر لمجد أو ثروة وأن أفكر إن شئت في سياحة للقمر وأن لا أخطو شيئاً الا من بنات أفكاري وأن أقول لنفسي في تواضع : أيتها النفس كوني راضية عن الازهار وعن الفواكه وحتى عن الاوراق مادمت تقتطفينها من بستانك ، فاذا ما فزت يوماً — بطريق الصدفة — لا أكون مديناً بفوزي لأحد بل أحتفظ لنفسي بالفضل كله وبالجملة لا أكون الطحلب الطفيلي وإن لم أكن السنديانة الباسقة فقد لا أرتفع عالياً ولكنني أرتفع بجدي »

***

وقد نقل هذه القصيدة نقلا حرفياً الى العربية فى شعر مرسل ( Blank Verse ) صديقى الدكتور أبو شادى بهذا النظم كما نظم المقطوعات التى أشرت اليها سابقا والتى سأذكرها بعد والنظم المرسل هو خير أساليب الشعر الدرامى وأقربها إلى طبيعة التمثيل وأبعدها عن تكلف القناعة . وهذا الضرب من النظم يكاد يكون معدوما فى الشعر العربى . قال :

وماذا تريدونني صانعا أأبحث عن سند لاحتمائى
أأرضى التملق كالطحلب تعلق فى كنف السنديانة
وشاء التسلق فى حيلة وعاف ارتفاعا على قوته
أهذا تريدون لا ألف شكر . . . أم القصد أن أختفي بالغنى
وأهدى نظيمى إلى الموسرين كما هى عادة غيرى بشعره
أم القصد أن أغتدي كالنديم فيدفعنى الامل السافل
وأسعى لاحظى ببسمة عطف خلت من دهاء بثغر الوزير
لا لا . ثم شكراً
أم القصد أن أتغذى سقيما بضفدعة كل يوم وأشكو
وأفسد من بشرتى فى سجودى دواما على ركبتى انصياعا
فلا ثم شكرا
أم القصد أنى يمناي ألعب والشاة حين يراى أزرع
وانى أوزع فى كل يوم بخور الثناء لشخص جديد
فلا ثم شكرا
أم القصد نشر نظيمى ودفعى لذلك سعرا فلا ثم شكرا
أم القصد أن أدع الغافلين يرو موتى ، بابٍ ، حانتهم
فلا ثم شكرا
أم القصد بنيان مجد لنفسى حول نظيم قديم لسولا
فلا ثم شكرا
أم الخوف من عنت الناقدين ومن صحف فى غلو ونلس

فلا ثم شكرا

أم الحذر المتناهى بحظوي و إيثار خلق على نظم شعرى

فلا ثم شكرا . وشكرا . وشكرا

***

ولكن أغنى وأسمو خيالا وأصفو وأضحك وحدى طليقا

وأن تغتدى لى عين البصير وصوت هو الرعد عند احتياجى

وانى متى شئت زينت رأسى بقبعتى كيفما كنت أهوى

وانى أبارز لما أشاء للفظة « لا » أو لقولى « نعم »

وأن أقرض الشعر أعمل لا أفكر فى ثروة أو جلال

و إنى أفكر إن شئت فى علو الى سفر للقمر

وأن لا أخط سوى ما حبته بنات لفكرى ولبى ونفسى

وأنى أقول وكلى اتضاع : « أيا نفس كونى بزهر قريرة

وكونى كذا بالثمار وحتى بأوراق بستانك الناضر

متى كان ملكك ، حتى اذا ما نجحت فلست مدينا لغيرى

ولكن أكون مدينا لنفسى ومحتفظاً بامتنانى لها .

وجلة حالى أنى لا أكون شبيه البنات الطفيلى

و إن لم أكن تلكم السنديانة فى مظهر البذخ الباسق

و إن لم أرتفع عاليا غير أنى أرقى بمجدى عزيزا كريما

هذا هو روستان مؤدب الشبيبة ومربيها بتأثير أشعاره السحرية المملوءة حقائق وتعاليم تدخل الأذن غير منتظرة لاذن

وهو لم يكتب قط إلا للذة الكتابة وحدها وحبا فى الشعر لذاته واضعا فيه بدايته ونهايته فقد أبى دائما أن يضحك الجمهور ويسعى لاكتساب هتافه ولكنه رغب دائما فى أن تكون أستاره بزوراً وحبوباً تبذر فى النفوس فتنبت نباتا طيبا . وانك لن تجد رواية من رواياته لا تستطيع أن تستخرج منها دروسا فى الادب والخلق الحسن .

وعندى أنه يجب أن يستظهر الشبان مجموعة من أشعار روستان لتكون عونا لهم على تقوية العواطف الكريمة فى نفوسهم. وان الشبيبة التى تعشق الجمال لتذكر دائما قول روستان لها :

كونوا عونا للجمال . كونوا ضد الجوع .
واذكروا دائما كلما أظلم الزمن
أن أنوار المثل الأعلى ساطعة باهرة

مما يقابله نظما :

كونوا معينا للجما ، ل ولا تكونوا للجموع
ولتذكروا دوما إذا ، ما أظلم الزمن المريع
أن المثال المشرق الـ ، عالى ليبهر فى السطوع

ولعل روايته ( الاميرة النائية ) أبدع قصيدة رتلت الحب الطاهر العذرى وليس فضل روستان فى نجاحه هذا لاغير . وانما فى جرأته التى جعلته فى أواخر القرن التاسع عشر — وجمهور الكتاب والقراء فى فرنسا يتصرون للمذهب الطبيعى ولا يأنفون من التحدث عن الحقائق عارية مرة ويدعون الاشياء باسمائها — أقول من ما ثره تلك الجرأة التى جعلته يتقدم اليهم بنشيد من الحب الخالص السماوي فيكتسب الجمهور لصفه وينتصر للجمال والخيال فينتصرا على يديه .

سفينة تتقاذفها الامواج . وبحارة ممزقو الملابس عراة الاجسام جلودهم مقروحة وبطونهم خاوية وقواهم خائرة وهم مع ذلك يقاومون الامواج ويجالدونها كالجبابرة الأبطال . ولم كل هذا ؟ أتراهم يسعون لثروة أو جاه ؟ كلا . وانما سندهم فى هذا الصراع فكرة بسيطة : إنهم يحملون «جفروا رودل» وحبه العميق » . جفروا رودل الذى أحب « الاميرة النائية » من غير أن يراها أو يقع بصره على صورتها وانما سمع شاعراً يعدد محاسنها فهام بها حباً وسعى إليها وقديما قال شاعر العرب بشار:

« والأذن تعشق قبل العين أحيانا »

ولقد بلغت عظمة هذا الحب ان هذه المجموعة من البحارة — وكلهم قرصان وقطاع طرق — أحست بعظمة هذا الحب فنسيت أحقادها ودفنت مطامعها وأدركت

ان المثل الاعلى يستحق التضحية فرغبت فيها ولم تبخل عليه بها . ونبضت قلوبها مع قلب العاشق وأبوا الا أن يلقوه حبيبته أو يغمرهم اليم .

وهذا «جفورا روديل» الذي أضناه المرض وأنهك قواه يسعى الى حبيبته بائسا قانطا موقنا انه سيموت من غير أن يستمتع بها ولكنه يأبى الا أن يراها : «حتى اذا نام نومته الاخيرة رآها في حلمه» فان لم يصل اليها : «فليمت وهو يلفظ اسمها» .

والاميرة نفسها ( وقد وصل الى سمعها حب جفروا ) قد أحبته وان لم تره لا يهمها إن كان وسيم الطلعة ام دميمها . إنها مدينة للشاعر الذي يوصفه محاسنها قد خلق في قلب عاشقها ذلك الحب مدينة له بشعورها بالعظمة والقلق وميول قلبها وحبها للشفق. للشفق الباكي وبروحها نوعا ما

وحتى بعد أن يجتمع العاشقان لا يفقد حبهما شيئاً من روحانيته ولا تدنس المادة طهارته فلا يكاد جفروا يجتمع بالاميرة حتى يقضي نحبه بين ذراعيها

فانتم ترون إذاً ان الحب عند روستان ليس الا ذلك الحلم البديع الذي يحرك النفوس ويلهب القلوب . كله بساطة وحقيقة ينمو وسط الاخلاص ويتم بالتضحية ونسيان النفس .

وانك لتقرأ روستان من أوله الى آخره فلا تجد عنده إلا كما قال عنه أحد الكتاب غداة وفاته : «إنه لم ينشد قط الا للنفوس العالية. حساس للغاية. سريع التأثر. حتى في المسرات والشهوات. لذلك ظل شعره طاهراً نزيهاً ملائكياً في كل لفظ من ألفاظه» .

* * *

ولم يكتف روستان بأن يكون من بين الشعراء الفرنسيين معاصريه أصقلهم لفظا وأجزلهم عبارة وأقواهم خيالا وانما كان له في كل ناحية من نواحي الشاعر فتح جديد . فلقد قرأت له وصف القبلة والدموع والضحك فوجدت أوصافا جديدة اخترعها اختراعا لا أظن ان شاعراً غيره سبقه الى مثلها أو اجترأ على قول نظائرها . وكلكم تعرفون وصف القبلة في سيرانو . وها كم وصفه للضحك وهي من أوائل شعره في سن العشرين :

«لقد قال لي الخالق يوم أوجدني : كن ضحوكا

وأظنني فى القبر لن امتنع عن الضحك
لا فانى لأنظم من ضحكاتى قصيدة عامرة رنانة
وانى ـ ولا فخر ـ أتقن الضحك إتقانا
إننى شاعر ـ والضحك سبيلى للغناء
وانى لاجعل لضحكاتى أوزانا وروبا
أصف بها الاشياء الجميلة وكثيرة ماهى :
السماء وأنفك والورد .
وحتى صمتى ــ حين لا اظهر ضاحكا ــ ليس الا ضحكا باطنيا
إننى أضحك الضحكات كلها ضحكة الطفل ضحكة المجنون
ضحكة الحيوان الحر ـ كل الضحكات أضحكها . . . الا الصفراء
وأحس بنفسى اكثر خفة واحسن حالا كلما ضحكت
فمتى أحب أضحك ومتى أعجب أضحك
وكلما أراك لا أستطيع عن الضحك امتناعا
وهذا ما يقابلها نظما بشعر مرسل :
قال لى الرب حين خلقني : كن أنت ضحوكا . وسوف أبقى ضحوكا
ما أظن القبر سوف ينهانى عن أن أدوم فى حال صفوي :
لا . فانى لأنظم الشعر من ضحكى وأنسى قصيدة رنانة
وأرانى ــ ولا افتخار ــ بحيدا ذلك الضحك ، متقنا اتقانا
و أنا شاعر وما الضحك الا منهجى للغناء والانشاد
وانا الواضع القوافى أوزانا لما صغته من الضحكات
وبها وصفى الجمال بشتى صور منه وهى جد كثيرة :
فى سماء ووصف أنفك والورد وحتى فى الصمت حينما لست أضحك
إنما الصمت هو عندى كالضحك بل الضحك فى مدى بطنى
إننى أضحك الجميع من الضحكات : فعندى للطفل أجل ضحكة
وكذا ضحكة المجنون وضحك الحيوان طليقا وكل ضحك سليم

غير ضحك الصفراء ثم أراني بشعوري أخف روحا وأصفى
ولهذا ضحكت عند شعوري بغرام وعند حسي بزهو
ولهذا متى رأيتك لم أقو على الامتناع عن فرط ضحكي

ويضيق بي الوقت عن أن أحدثكم عن باقي روايات روستان ومؤلفاته ويكفيني أن أقول لكم إن أعماله مجموعة قيمة ، نادرة المثال ينطبق عليها حقا وصف حافظ ابراهيم لادب صروف :

فاللفظ فيه مقوم بصحيفة والسطر فيه مقوم بكتاب

***

سادتي : لقد أخذت الكثير من وقتكم : ولكن نفسي لا تطاوعني أن أختم الحديث عن روستان دون ان أتلو عليكم ترجمة قصيدة من قصائده الغزلية أسماها « الاقواس » أو الذكرى الغامضة لانه - قد نسي ما كان - يتخيل دائما أن كل ما أحاط بحبيبته كان جميلا بديعا على حد قولي هيني She walks inbcanty : إنها تسير في ثنايا الجمال . اوكما قال الاستاذ الجليل الدكتور طه حسين : « هي فتنة متحركة » . اما روستان فقد قال :

لقد كنا ذلك المساء تحت سنديانة باسقة
( سنديانه ربما لم تلك الاشجيرة الزيزفون )
وكنت - حبا في ان اجثو عند ركبتيك على الارض -
قد تركت كرسي الهزاز يتموج وحده
وكنت شقراء كالصور المنشورة في المجلات
وكان كرسيك يهتز بك كالزورق في الماء
وكان يغني فوق الشجرة بلبل
( بلبل ربما لم يك الا عصفورا )
وكانت تبلغ آذاننا نغمات موسيقية نائية
( نغمات ربما لم تك الا ضجيجا )
وكان فرع الشجرة الاخضر المتدلي نحونا يعصف به الهواء

أشبه بعازف يلعب على قيثارة .
وكانت السماء كلها كصفحة حمراء
وكنا نلمح على بعد خيال أشجار يهتز على لجين بحيرة
( بحيرة ربما لم تك الا مستنقعاً )
وبينما الأمل يبسط جناحيه
( أمل ربما لم يك إلا رغبة )
كانت ملابسك تلمس خدى
وأصبعى تحاول أن تمسكها .
وكنت أحاول أن أتبين عدد ثنايا ردائك
وكنا وقد أذهلنا الحب — نتبادل أحاديث
( أحاديث ربما لم تك إلا كلماً ) !
وصعدت على ملابسك حشرة سوداء
كبقعة الحبر على الصحيفة البيضاء
ورمى الخوف بك بين ذراعى
( خوف ربما لم يك الا وسيلة ) !
وأفضنا بأسرارنا فى الظلام
وخيل إلى أنني أرى بعينيك الحانيتين الحائرتين
روحاً عميقة دقيقة الاحساس
( روحا ربما لم تك الا نظرة ) !

* * *

وهذه ترجمتها النظمية :

كنا بذاك المساء نظلنا سنديانه
( وربما هى كانت شجيرة الزيزفون ) !
وكنت من فوط حبي الدنو من ركبتيك
أجثو وأترك كرسى يموج ملء اهتزازه

وكنت شقراء كالصورة تختار زينه محنف
وكان يهتز كريك مثل هزة زورق
وكان سحراً يغنى على الشجيرة بلبل
( وربما لم يكن ذا إلا مغنى حقير ) !
وكان يبلغ أذنينا صوت بعيد غناثى
( وربما لم يكن ذا إلا ضجيج ثقيل ) !
وقد كان ذلك الغصن الذى تدلى إلينا
فى وسط عصف الهواء كعازف القيثارة
أما السماء فكانت كصفحة حمراء
وكان فى البعد يبد وخيال أشجار هزت
على لجين البحيرة ،
( وربما هى فى الحقيقة مستنقع ) !
وحين كان جناحا الرجاء يمتدان
( وربما كان هذا الرجاء أبسط رغبة )
كانت ثيابك هذى باللطف تلمس خدى
وأنملاتى افتانا قد حاولت مسكها
وكم تحايلت حتى أدرى ثنايا ثيابك
وكان والحب يقضى على النهى بالذهول
لنا حديث مبادل
( وربما كان هذا الحديث لفظا يسيرا )
ثم اعتلت فوق ملبوسك حشرة سوداء
كانت كبقعة حبر بصفحة بيضاء
فلنت بين ذراعى وقد رمى بك خوف
( وربما كان هذا فى الحق محض وسيلة ) !

وفى الظلام أفضنا بسرنا دون حد
وكنت ألمح روحا عميقة حساسة
فى نور عينيك هاتين بحيرة و بعطف
( وربما هذه الروح لم تكن غير نظره ) !

*
* *

هنا تنتهى خطبتى عن روستان ؛ ولا بد أن نستخلص فى كلمة وجيزة من حديث روستان شيئاً يخص بالأدب المصرى الحديث وكيف هو الآن ؛ وكيف يجب أن يكون :

لقد رأيتم معى كيف أن روستان قد نفض عنه رداء التقاليد ؛ وكيف أنه لم يتأثر بميول الجمهور فى عهده ؛ وكيف أوجد الشعر الطاهر الروحانى فى وسط كله إلحاد وماديات . فهل يخلق بنا نحن ، فى هذا الزمن ، أن نقضى على قواعد

طال عليها القدم ، فهى وجود عدم ؟

أما آن لنا أن نرفع الأكفان التى نسجتها عادات قديمة ؛ وحاكتها أيد عاطلة . . . لقد خرج الكثير من الأدباء على هذه المبادىء العتيقة ؛ ولكنه - فى نظرى - خروج وسط ، وأنا فى هذا التيار أحب المتطرفين . إنهم يطلقون القصيد أو اللفظ حتى اذا ما ثاب عليهم دعاة الرجعية الادبية والجمود عمدوا الى متون اللغة يبحثون فيها عن استعمال يبرر جرأتهم ويخفف ، جريمتهم ، وقد يكون لهم العذر فى ذلك فان الجمهور لا يزال مع الأسف يقيس الشاعر أو الاديب بمقدار اضطلاعه بقواعد النحو والصرف واللغة . أما أنا فرأيى ماقاله الاستاذ خليل نعيمة صاحب ( الغربال ):

« ان اللغة مظهر من مظاهر الحياة لا تخضع الا لقوانين الحياة فهى تنتقى المناسب وتحتفظ من المناسب بالانسب فى كل حالة من حالاتها وكالشجرة تبدل أغصانها اليابسة باغصان خضراء وأوراقها الميتة بأوراق حية . وحين لا يبقى لها فى تربتها من غذاء تموت بفروعها وجذورها ولو تجمهرت كل البشرية لما استطاعت إرجاع المياه اليها . هكذا ماتت البابلية والأشورية والفينيقية والمصرية وكثير سواها »

سادتي: لسنا متمنين ولا مبالغين حين نصرخ بكم «حذار ان تميتوا لغتكم بأيديكم» . فان أردتم لها الحياة القوية الكريمة فاجرؤوا ثم اجرؤوا . استعملوا ما استحسنتم من الجديد من ألفاظ أو تعابير مهذبة مصقولة فسيأتي بعدكم من يختبر المناسب ثم يحتفظ من المناسب بالانسب . أما ان تتركوا العالم يتقدم ولغتنا واقفة في مكانها فذلك هو التقهقر بعينه . هكذا فعل إدمون روستان وأقرانه العبقريون وهكذا يجب أن يفعل كل أديب نابه يعجب بهم .

اطلب من دار العصور للطبع والنشر

بشارع اسماعيل الفلكي بالظاهر

كتاب

الضحية

صرح

وروايات وأبحاث أخرى

تأليف

طاغور الشاعر الالمعي المعروف

بقلم

اسماعيل مظهر